محمود محمد مدني

الحياة بين يافطتين

داخل السور وخارج السور . يالحاق بعيد . يا عايش الدودة بين حجرين . عندما هبط النور الى المدينة لم يستقبله « البندر »(*) ببشاشة . ولم تتعاطف معه حتى الشمس التي خيل اليه انها ملتهبة اكثر من شمس قريته وان الناس في المدينة يعرفون كيف يباصرون حرارتها بالمكيفات والثلج والمراوح والمرطبات . دار الزمن دورته فلحق بالنور من تبقى من اسرته في القرية .. زوجته « آلتايه » وطفله عثمان الذي لم يتعد العامين من العمر . داخ في المدينة حتى توسط قريب له من بعيد ليشغله خفيرا بمرتب لا يزيد عن الاثني عشر جنيها . الايام كلها تدور نفس الدورة والحلقة تزداد ضيقا والتلتله هي السمة المميزة للاشياء . وكم عانى النور وهو يجابه الاطباء في مستشفى الخرطوم ـ والممرضين والممرضات ايضا ـ من اجل نقطة دواء لزوجته او طفله ، ودار الزمن دورته من جديد وشب عثمان الطفل الصغير ويوم ان قالت له زوجته : « ما نشوف طريقة مدرسة للولد ده.. الزمن ده زمن تعليم » كاد ان يكسر رقبتها في سره .

ـ يا وليه ما تخافي الله نحن قادرين ناكل .!

خفضت بصرها ورحلت بعيدا عن عينيه الممتلئتين حنقا وكربا.

ـ طيب نسوي ليهو شنو ؟

ـ نشوف ليهو شغلانه .

ـ جاهل متل ده بيشتغل شنو ؟

ـ ياوليه الله كريم .

ذلك اليوم ضاقت الحلقة وظل النور طوال الليل يسلمه الارق الى الارق . وقبل ان ينام تماما قال لنفسه (طيب انا سيد حسن ده اصلو ما طلبت منو خدمة وهو مدير الشركة .. هو المدير وانا الغفير حاقول ليهو شنو ؟ البسويها الله تبقى . باكر انا اكلمو اصلو داير ياكلني . آقول ليهو عثمان ولدي ده زي نادر ولدك . لكن زيوكيف؟ ده ابوهو المدير وده ابوهوه انا الغفير . يالحاق بعيد . ياعايش الدودة بين حجرين) .

* * *

ظل التردد يسد عليه الطريق . لا يدري لماذا يتردد . كلمتين تلاتة للمدير اصلو عاوز ياكلم ، كانت الساعة قد جاوزت الثانية والنصف ومكاتب الشركة خالية تماما وسيد حسن مدير الشركة موجود بمكتبه الانيق . تقدم النور نحو المكتب وهو يحاول الانفلات من مصيدة الحيرة والتردد .. يا قوي .. يالحاق بعيد . في مواجهة المدير عادت سحابات التردد والجفول من جديد تسد عليه الطريق .

رفع المدير راسه ليجد النور امامه وقد شبك يديه من خلفه وفي عينيه الفة طبيعية زادتها الحاجة مسكنة وأسى .

ـ آيوه يا النور في حاجة .

ـ بس الحقيقة يا سيد حسن ..

هذه الثواني من الصمت كان يخشاها . لماذا اقدم على هذه المغامرة . تطير عيشة عثمان وامو .

ـ ايوه يا النور قول في حاجة .

ـ الحقيقة يا سيد حسن عثمان ولدي ..

من جديد الثواني القاتلة . الصمت في مواجهة الحياة التي يجب ان تمتد في شخص اخر هو ابنه عثمان . حدق في عيني سيد حسن فلم يجد فيهما الغابة المتوحشة التي كان يخشاها . وجد فيهما شيئا مثل النيل هادئا وطيبا واليفا ولكن لا يعرف انسان في الدنيا متى يتحول هذا الهدوء الى صاعقة او زوبعة ربما تؤدي الى قطع عيشه هو ايضا . وعندها فلتذهب التايه وابنها الى الجحيم . دي وقعة شنو . لو ترك والده عدة قراريط من الارض لما وقف مثل هذه الوقفة المذلة امام رجل ولدته امراة مثل ما ولدته امراة هي نايله بت شيخ الطيب . احس بثقل الثواني كانها صخرة قادمة من فجر التاريخ . فرقع اصابعه خلف ظهره وقال :

ـ الحقيقة يا سيد حسن انا دايرك تساعدني في مسالة عثمان ولدي .

ـ علي عيني وراسي انت رايد شنو بالظبط ياالنور ؟

لم يصدق ان سيد حسن مدير الشركة . هذا الرجل الذي يساوي ما يلبسه في يوم واحد ما يتقاضاه هو من مرتب شهري .. يستجيب له بكل هذه الرقة . يا مهوّن يالحاق بعيد تتم جميلك . تمتم بكلمات لم تذهب بعيدا عن فمه ثم قال :

ـ دايرك يا سيد حسن تشوف ليهو شغلانه .

نفض المدير رماد سيجارته ومسح جبهته واراد ان يبدأ الحديث ولكن النور لاحقه :

ـ طبعا يا سيد حسن عثمان ولدي زي نادر ولدك .

ـ ياما اعتبرت كل الاولاد الزيو اولادي .

(النور يعرف انه يكذب تماما ..)

يمضي ..

ـ لكن انت ما كلمتني من بدري ليه ؟

ـ هو يا دوب بقى للشغل .

ـ القصد من اول السنة المالية .

ـ انا عارف يا سيد حسن اوله من اخره .

ـ اصلو يا النور السنة المالية الحالية قربت تنتهي وما بنقدر نعين زول الا في السنة المالية الجديدة وحتى بنود الخصم كلها صرفت . ما بتقدر تصبر لحد اول السنة المالية الجديدة .. كلها كم شهر ..

ـ نصبر كيف يا سيد حسن.. لو ما قدرة الله ما عارف كنا عملنا كيف .

مسح المدير برفق على جبهته ثم اشعل سيجارة راح ينفث دخانها في عصبية بدت للنور مفتعلة . رن جرس التليفون . تناوله المدير وبدا يتحدث حديثا نصفه بالانجليزية . كل ذلك والنور مربوط بخلجات وجهه حيث يرقد الامل واليأس . البداية والنهاية . كلمة واحدة في غير موضعها قد تودي بمشروع انسان . داخل وخارج السور .. هذه هي المسالة يا النور . الجوه جوه والبره بره . ولكن حبال الامل لا بد ان تمتد لمن شرع في الغرق حتف انفه . وضع المدير السماعة ثم التفت ناحية النور الواقف امامه في ادب لم يقف بمثله لانسان من قبل حتى النذير العمدة القاسي الذي كان كل شيء في القرية يرتجف لمرآه .

ـ طيب يا النور المسالة زي ما قلت ليك .

ـ تقصد ما في امل يا سيد حسن .

قال النور هذه الكلمات من فوق شرف الخاطر المكسور . من فوق شرف الهم المبرح الذي يدمي القلب . تذكر العرّافة التي قالت له الشهر الماضي عندما اصر على ان يستكشف مشواره في الدنيا .

ـ قدامك سكة عديله وخطوتك بيضاء .

ـ الولد ده ذاتو سكتو عديله . ما تشيل هم .

يتنحنح المدير وهو يلملم اوراقه استعدادا لمغادرة المكتب .

قال بنفس العصبية التي بدت للنور في وقت سابق مفتعلة :

ـ طبعا يا النور زي ما قلت ليك . عثمان زي نادر ولدي تمام وعشان كده انا حاقدم ليك الخدمة الطلبتها مني .

ـ يا سلام يا سيد حسن انا قلبي كان محدثني .

ـ من هنا لحد اول السنة المالية انا حاشغلو في المساء معانا في نادي التنس بتاعنا انهو نطلع ليهو قرشين تلاتة لحد اول السنة المالية .. ومع بداية السنة المالية يشتغل في ورشة الشركة . والله الصنعة يا النور احسن وربك يهون ويدينا العافية .

ـ والله انا ما عارف اجازيك كيف .

ـ عيب يا النور عيب .. بس خلي عثمان يجيني باكر الصباح عشان اتفق معاهو ..

ـ شكرا يا سيد حسن .

* * *

زالت غشاوات الدهشة الاولى لدى عثمان . تعود ان يجيء قبلهم جميعا بقميص ورداء نظيفين اشتراهما له سيد حسن . ومع زوال غشاوات الدهشة تعلم عثمان اشياء كثيرة . السرعة في احضار الكرات ورميها برفق للاعبين وبينهم دائما حسن وابنه نادر . وتعلم شيئا اسمه الذوق والابتسام الدائم في اوجه اللاعبين وعدم التدخل في الاشياء التي لا تخصه . وقال سيد حسن للنور ان عثمان يتقدم بسرعة .

ـ والله انا مبسوط منو وحنزيدو خمسين قرش .

تعود عثمان على رؤية فتيات مثل فلقة القمر . واجسادهن في ليونة اعواد الذرة عندما تهزها في الخريف رياح الشتاء . حفظ اسماءهن : هند .. ناهد .. اميرة .. سلاف .. بسبس .. كوكو . اماني .. سلاف بنت شقية ابوها مقاول كبير . يا زول عندهم عربيتين. كانت دونما سبب ظاهر تحاول اغاظته لانه نطق اسمها خطا مرتين ..

ـ والله اسم زي ده في بلدنا اصلو مافي .

ـ انت شافع ظاهر عليك راسك قوي .

ـ انا عملت ليك حاجة .

ـ مليون حاجة . ودمك ذاتو تقيل .

* * *

مرت اربعة اشهر وعثمان يتعلم كل شيء جديد من هؤلاء الناس. في كل مرة كانوا يغادرون فيها الملعب بعرباتهم شيء كاليتم او الفقد المفاجيء كان يحيطه . وعندما تعلو الضحكات المجلجلة وهم يجففون عرقهم ببشاكير نظيفة يحضرها هو من احد اركان الملعب شيء كالدموع الحبيسة يغشى قلبه الصغير .

* * *

ـ شوف يا ولد ده اكل عيش اوعى تتلاعب . يقولو ليك اعمل حاجة تعملها طوالي وخشمك كارس مفهوم .كل يوم تفسل الهدوم ديل نضاف . الناس ديل ناس كبار ومحترمين ودي خدمة قدمها لينا سيد حسن .. لو مشيت عملت كده ولا كده عكازي ده فوق راسك . مفهوم.

ـ حاضر بابا .

* * *

الجميع في حالة انسجام وحماس للعبة التنس وعثمان نشيط كعادته يقفز خارج السور ويحضر الكرات والبشاكير ويعلق ابتسامته الدائمة على وجهه النحيل الذي لفحته شمس العصريات المحرقة . الرجال والفتيات والاولاد الذين هم في سنه واكبر قليلا ينادونه باسمه .

ـ اجري شوبه يا عثمان .

ـ جيب بشكير اماني الاخضر .

وتمر الدقائق وهو يؤدي نفس الدور الذي يؤديه في صبر ودقة منذ اربعة اشهر. وحرص عثمان على دوره كان يوازي عصا والده الفليظة. عثمان يقفز خارج السور ليحضر احدى الكرات . سلاف بملابسها البيضاء وعينيها الشقيتين تنتظره ليلقي لها الكرة بسرعة .

ـ ما معقول ناهد تغلبنا .

ـ دي كيشه(*)ومسجدة كمان .

يقذف عثمان الكرة بكل مافي جسمه الصغير من قوة . تباغت سلاف بالكرة فوق وجهها . لم يدر عثمان من اين أتته هذه القوة التي اسالت الدم من انف البنت . حالة من الذعر الشديد انتابت عثمان . جرى ليحضر ماء ولكنه عاد من منتصف الطريق . جرى ليحضر بشكيرا ولكنه عاد من منتصف الطريق . عيناه من الخوف تحولتا الى قبر قديم .

ـ بسيطة يا جماعة سلاف اصلها عندها حساسية في الانف .

ـ بسيطة شنو .. ده ود فقري جدا . اصلهم كده الواحد يجيك عميان وشوبه شوبه يتعلم الحسادة . ناس قدر ما تعمل فيهم ما بينفع.

نظرت البنت في قعر عينيه ثم قالت :

ـ ما عايزين نشوفك ..هنا تاني .

* * *

قال النور ..

ـ يا سيد حسن انا قلت اذكرك بالسنة القلتها عشان عثمان ..

ـ يا اخي مش كفاية العملو عثمان .. دخلني في اضافريني. « بمعنى أظافري » .

(*) البندر : المدينة بالدارجة السودانية.

(*) كيشه : لفظة دارجة سودانية تطلق على الشخص الذي يجهل الاشياء .